البويطي.. أسد في القيود

ونحن الآن مع إمام جليل من أئمة المسلمين الثابتين في وجه الظلم والجور والسلطان الغشوم، إنه الإمام المصري الذي ولد في أواسط القرن الأول الهجري، ولا يُعلم على وجه التحديد في أي عام ولد، ولكنه يرجع لأرومة قرشية أصيلة، أما نسبه البويطي فيرجع إلى قرية بويط بصعيد مصر؛ حيث استقرت فيها أسرته منذ الفتح الإسلامي للبلاد.. تلقى العلم في بداية حياته في قريته، ثم انتقل إلى الفسطاط مع أبيه، وجلس لعبد الله ابن وهب شيخ المالكية في مصر، وحمل عنه علمًا كثيرًا؛ وشاءت الأقدار أن يرحل الشافعي إلى مصر سنة ١٩٨ هـ لنشر علمه، فاستمع إليه البويطي، وحضر حلقه وتعلم على يديه، وصار من تلاميذه المقربين، وتوسم الشافعي فيه نجابة وذكاء فاعتنى به وقربه، وأوصى أن يكون وريث حلقته ومجلسه الفقهي في مسجد عمرو، حيث قال: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه.. وأثنى عليه بقوله: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي، حتى أن مسائل العلم والفتاوى التي كانت ترد إلى الشافعي، كان يحيلها على البويطي ليجيب عليها، وإذا اعترض أحد على ذلك قال له: البويطي لساني الذي أتكلم به، حتى إنه كان يرسله مع رجال الوالي من الحرس والشرط لردع العصاة، والاحتساب على الماجنين والفاسقين، ويالها من ثقة كبيرة من إمام جليل، تشير إلى مقام هذا التلميذ في العلم، وقدره في المسؤولية.

ولم تكن شهادة الشافعي وحدها، هي التي تعبر عن قدره وتثمن شخصه، وإنما كان أصحابه أول من يعرفون تميزه وعلو نفسه، فقد قال رفيق دربه في طلب العلم الربيع المرادي: كان البويطي أبدًا يحرك شفتيه بذكر الله،

وما أبصرت أحدًا أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي، وكان يسرد الصوم، ويختم القرآن في الأسبوع الواحد عدة مرات، وكان من رجال العامة، يقوم مع الناس في حاجاتهم، وله صنائع المعروف مع الناس أجمعين..

وقال عنه الذهبي: كان إمامًا في العلم، وقدوة في العمل، زاهدًا، ربانيًا، متهجدًا دائم الذكر والعكوف على الفقه..

وقال عنه جاره ابن أبي الجارود: كان البويطي جاري، فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

وقال ابن خلكان: البويطي صاحب الشافعي ﷺ كان واسطة عقد جماعته، وأظهرهم نجابة، وكان صالحًا متنسكًا، عابدًا زاهدًا.

ولم يكن البويطي ألمعيا ذكيًا نابهًا فقط.. وإنما كان من أعظم صفاته وأميزها، والتي أدخلته التاريخ كقدوة عظيم، وعالم رباني محمود السيرة والمسيرة، هي قوته في الحق وشدة تمسكه به، فكان لا يرهب في سبيلة ظلم ظالم، أو بطش سلطان، ولديه استعداد أن ينطق به ويجهر بمراده، ولو كان السيف على رقبته، وهي صفات لم تكن تلائم ذلك الزمان، أو تناسب طبيعته المليئة بالفتن، وتعرض صاحبها للخطر الشديد والمواجهة الحرجة.. ولقد فطن الإمام الشافعي وتنبأ بما سيكون لتلميذه النجيب، لما عرفه منه من صدعه بالحق ولو كان مرًا، فقال لتلاميذه يومًا: ترون هذا؟ لن يموت إلا في حديده، قال ذلك قبل أن يصدق حديثة ونبوءته بـ ١٢ عامًا، حينما تعرض البويطي لفتنة خلق القرآن.. فقد كانت المحنة شديدة في عهدي المأمون والمعتصم، ولكنها في عهد الواثق، اتخذت شكلا أوسع، وتعمقت في كثير من الأمصار، حيث بعث إلى الولاة أن يمتحنوا العلماء في القول بخلق القرآن، ومن يمتنع يعتقل ويسجن، ويساق إلى الخليفة في بغداد حتى يحكم في أمره.!

لقد كانوا يتتبعون الأئمة والعلماء وكبار المشايخ، ويسكتونهم ويقمعون ألسنتهم أن تنطق بالحق بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، وقام بعض الوشاة والحسودين الكارهين للبويطي بالكتابة للسلطة عن مخالفته للقول بخلق القرآن، والإشارة لعقيدته السلفية الرافضة لفكر المعتزلة، وما أن علم ابن أبي دؤاد رأس الفتنة وكبير المعتزلة بالأمر، حتى كتب إلى والي مصر يأمره بامتحان الإمام البويطي، وحاول الوالي لحبه للبويطي، أن يجد له مخرجًا وحيلة، فقال له: قل فيما ببني وبينك، أي تظاهر بالموافقة فقط، حتى تأمن غائلة الطاغية ابن أبي داود، والموقعين به، لكن البويطي ضرب أروع الأمثلة في فهم مكانة الإمام، وطبيعة الدور الذي يؤديه في قيادة الأمة وقت النوازل، وأبى أن يترخص في الأمر، وعمل بالعزيمة كما فعل أخوه الإمام أحمد بن حنبل، وقال للوالي المشفق عليه: إنه يقتدي به مائة ألف، لا يدرون أني أتظاهر فقط بالموافقة، وإن أجبت أجابوا هم أيضًا؛ فقبض عليه، وحمله مقيدًا إلى بغداد سنة ٢٣٠هـ.

هكذا يثبت على مبادئه، ويتحدى الدولة الخاطئة، والحكومة التي يراها أتت منكرًا من القول وزورًا، لم يطع أمر الكبراء بحجة طاعة ولي الأمر، ولم يتنكر للحق بحجة وجوب طاعة السلطان، ليظل الحق هو السيد والإمام والهدى المتبع.. إن سيرة البويطي صفعة من صفعات التراث الإسلامي العظيم، تهوي على أقفية العمائم الضالة، ويدًا قوية تنثر التراب على وجوه العلماء المنافقين التي يعبدون السلاطين من دون الله.. صفحة مضيئة من صفحات التاريخ الإسلامي البطولي المشرق لقائد من قادته العظام، وهامة من هاماته العالية، تلفت العلماء المتخاذلين الجبناء إلى تفريطهم في أمانتهم ورسالتهم، وإهانتهم للعلم وإهدارهم لكرامته، حينما صاروا أذلة متخاذلين إمعاتٍ تحت أجنحة الحكام..

ولا شك كانت رحلة شاقة ومؤلمة، عانى منها الإمام الجليل وهو في القيود، ولكن كل شيء يهون.. الجسد يهون.. والنفس تهون.. من أجل نصرة الحق وإظهار الحقيقة.. مشهد محزن صوره لنا صديقه الربيع فقال: لقد رأيت الإمام البويطي على بغل في عنقه غل، وفي رجله قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بـ (كن)؛ فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقًا خلق بمخلوق، ولئن أُدخلت عليه - يعني الخليفة الواثق - لأَصْدُقَنَّهُ: أي أقول الصدق، ولا أخاف منه، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم.

يالها من كلمات لو قرأها علماء السلاطين لبكوا على أنفسهم لتفريطهم الكبير.. وخذلانهم البعيد، ونفوسهم الصغيرة الحقيرة التي باعت وفرطت وأضاعت وجعلت من الحق لقمة صائغة في فم كل مارق جهول.!

وما كاد البويطي أن يصل إلى بغداد، حتى أمر ابن أبي دؤاد بإلقائه في غياهب السجون، والتشديد عليه، ولم يمتحنه كما فعل مع غيره من العلماء، ولم يدخله على الخليفة كما هي العادة مع كبار العلماء، خوفًا من أن يقنع الواثق بالحق، ويرده عن البدعة.. وظل في السجن عدة شهور كان فيها مثالا للمؤمن الثابت الصابر المحتسب القائم المتمسك بالحق، وكان يُعلّم المساجين أمور دينهم، ويناظر المبتدعة، وكان في كل يوم جمعة يتطهر ويأتي باب زنزانته ويطلب الخروج لأداء الجمعة، والسجان يرده فيقول: والله إنك تعلم أن المنع ليس مني، وظل دأبه هكذا فترة.

وحاول الطاغية ابن أبي دؤاد أن يستغل قهره وسجنه ليضغط عليه، فأرسل له من يقنعه ويناقشه، لكنه كان في أسمى حالات إبائه شامخًا قويًا عصيًا على الذل والقهر، وأكبر من أن يكون مطمعًا لطاغية مستغل، وهو ما

دعا أعداءه أن يزيدوا في عذابه وقيوده، فلفوه بالحديد من أعلاه إلى أدناه، واشتد الأمر فلم يقدر على الحركة، حتى الوضوء والتطهر لم يكن يستطيعه إلا بصعوبة، فتأثرت نفسيته، حتى أنه بعث برسالة للإمام الذهلي، وهو من كبار علماء الحديث في خراسان قال فيها: يا أبا يحيى قل لإخواني أصحاب الحديث، وطلبة العلم، أن يدعو الله عز وجل أن يفك كربتي، فلقد كبلوني بالحديد حتى إني لم أعد أتطهر وأصلي كما ينبغي، عسى الله أن يفرج عني ما أنا فيه بدعائهم، فلما قرأها على طلبة الحديث في حلقته، بكوا لحاله ولهجوا بالدعاء له أن يفك الله كربه ومحنته.

ويأتي الفرج من رب السماء، لتخرج روحه الطاهرة الباسلة الأبية إلى ربها وهي منتصرة عزيزة قوية، تخرج وهي تغيظ المجرمين أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها أو يقهروها، ليظل صاحبها قدوة مبهرة على مر الزمان، وشعلة مضيئة لأمثاله من العمائم التي تتبع الحق وتنصر الصدق، وترفع راية الهداية، وتواجه الظلم وأنصاره، وتقود الأمة للرفعة والرقي.

ومات الإمام البويطي رحمه الله في سجنه وقيوده وحديده سنة ٢٣١هـ.

يقول الأستاذ جمال بدوي: كان البويطي من العلماء يخفض للضعفاء جناح الذل.. ويرفع الهامات في وجه الجبارين والطغاة.